قالت العرب
"وأنت تعد فطورك، فكر بغيرك... (لا تنس قوت الحمام)
وأنت تخوض حروبك، فكر بغيرك... (لا تنس من يطلبون السلام)
وأنت تسدد فاتورة الماء، فكر بغيرك...
(ثمة من يرضعون الغمام)

المشهد

العدد 343 السنة الثالثة عشرة- الأحد 28 ديسمبر 2025م - 8 رجب 1447هـ

سيرةُ مصريٍّ.. مع عمار على حسن وعنه

وأنت تقف مشدوهًا أمام أثرٍ مصرى قديم، أو داخل معبد، أو مقبرةٍ، ستجد أن السؤال الذى يملأ عقلك وقلبك: كيف فعلوا هذا؟ والأجدر أن يكون: مَن فعل هذا؟ وإجابته تحكيها لك الآثار والمعابد؛ المصرى حين يكدُ ويبدع.. حين يعرف قيمته، المواطن السيد فى البلد السيد، إنه ذلك البسيط الذى تخطئه العين، وتحت جلده حضارة آلاف القرون، ورثها نعمةً للكون، ونقمة عليه، وأحسب أنك تستطيع معرفة المصرى الخالص؛ بإبداعه وتواضعه وصدقه، أما من اختلطت أصوله بأوشاب الآخرين فستجده مقلدًا متكبرًا منافقًا... ولنتبع اليوم سيرة مصرى من هذا الزمان.

(١)

أين يقف؟

فى رائعته (العمامة والقبعة) يحاكم صنع الله إبراهيم النخبة المصرية التى لم تقاوم الجيش الفرنسي، وهربت عند احتلاله القاهرة، وعادت حين أعطاها سارى عسكر الأمان، وحاولت شرعنة احتلاله، وصَمّت الأذن عن نداءات محمد كُريم الذى حكم عليه نابليون بالإعدام إلا أن يفتدى نفسه، وتتجلى إهانة هذه النخبة عند معايرة كليبر لها بعجزها عن إيقاف ثورة القاهرة الثانية، ثم فرضه ضرائب عليهم، وحبسهم فى مجلسهم حتى تبول بعضهم على نفسه.. ولم يجد صنع الله مفرًا من أن يخترع شخصية – لا اسم لها – لتعبر عن المصريين ولتكتب تاريخهم الحقيقي، ورغم سرقة الطيارات – الأوراق التى دون فيها المجهول يوميات الحملة – ورغم نسبة الجبرتى بعضها إليه بعد تحريفها وتهذيبها – فإنها وصلت إلينا حاملة عنوانًا دالا يجمع النخبة (العمامة) والمحتل (القبعة).

لكن ما تخيله صنع الله، وجده أحمد بهاء الدين فى (أيام لها تاريخ) فقد مثّل رفاعة الطهطاوى النخبة المصرية التى ظهرت دون قصد من (عزيز مصر الألباني) الذى أراد بناء جيش غاز يمكنه من تحقيق أطماعه؛ فأنشأ المدارس وأرسل فِرق الجيش لتلقى العلوم العسكرية، ومع إحداها كان الطهطاوى خطيبًا وإمامًا لكنه تجاوز ذلك بنقله ما رأى وتأسيسه لمدرسة الترجمة، وما يلفت النظر أن أول مقالات الطهطاوى فى (الوقائع المصرية) كان عن الديمقراطية، ومع أن الألبانى لم ينتبه لخطر مشروع الطهطاوى فقد خلفه من صرخ: «الأمم الجاهلة أسلس قيادًا من الأمم المتعلمة» وأطاح بالطهطاوى إلى المنفى، وأعاد البعثات، وقلص ميزانية التعليم، لكن كل هذا لم يوقف مسار النخبة التى تؤمن بأحقية المصريين فى معيشة أفضل، بل نمت حتى إذا جاء المتباهى وأراد مجلس شورى للزينة، ملأه تلامذة الطهطاوى مطالبين بحقوقهم فى مناقشة ميزانيتهم والحد من تدخل الأجانب، وهذا ما لم يتحمله الغرب فعزل المتباهى وولى المطيع.

وجده بهاء أيضًا فى عبد الله النديم رغم بداياته المخفقة وظروفه السيئة، الذى مثّل نموذجًا لقائد الرأى المصري، الذى لا ينكسر ولا ينحني، والذى يكون حضور اسمه برهانًا على أن مصر لم تزل تقاوم وفق صحيفة التيمس فى سياق تحريضها للاحتلال على إغلاق صحيفة الأستاذ التى أصدرها النديم عقب العفو عنه لاشتراكه فى الثورة العرابية، وعلى حين عاش الأفغانى الذى كان يوزع «السعوط بيمينه والثورة بيساره» فى كنف السلطان العثمانى – حتى قرّر تسميمه – وعاد عرابى بثلاث مقالات اعتذارية للإنجليز على صفحات الأهرام، بقى النديم رائدًا لا يكذب أهله.. ولم تزل مصر تنجب الاثنين؛ من يسير فى معية السلطان الأرضى سواء كان محتلاً أو مستبدًا أو وكيلاً للمحتل، ومن يقف وسط شعبه.. ومن هؤلاء عمار على حسن.

(٢)

يقر عمار بأن الأدب هو الأبقى، وهو محق فى ذلك فمن يذكر وظائف ابن زيدون أو طه حسين أو الجرجانى أو بودلير أو ويتمان أو ديستوفسكى أو نجيب محفوظ؟ لكن من ينسى نونية ابن زيدون، أو دعاء الكروان، أو دلائل الإعجاز أو أزهار الشر أو أوراق العشب أو الإخوة الأعداء أو الحرافيش؛ وقد انتبه محفوظ لهذا فهو نادر كتابة المقالات، ممتنع حين يعمل على رواية، هذا الإقرار جعل عمار ينتج فى مختلف الأنواع الأدبية أعمالاً تلفت انتباه الناقد وتجذب القارئ منها روايات: «حكاية شمردل؛ ٢٠٠١»، و«جدران المدى ٢٠٠٦» و «زهر الخريف؛ ٢٠٠٦» و «شجرة العابد؛ ٢٠١٢» و «سقوط الصمت؛ ٢٠١٣» و «السلفي؛ ٢٠١٤» و «جبل الطير؛ ٢٠١٤» و «باب رزق؛ ٢٠١٥» و «بيت السناري؛ ٢٠١٧» و «خبيئة العارف؛ ٢٠١٨» و «صاحب السر؛ ٢٠٢١» و «احتياج خاص؛ ٢٠٢٣» و « ملحمة المطاريد؛ ٢٠٢٥» .

وفى مجموعات قصصية: «عرب العطيات؛ ١٩٩٨» و «أحلام منسية ٢٠٠٥» و « التى هى أحزن؛ ٢٠١٣» و «حكايات الحب الأول؛ ٢٠١٤» و «عطر الليل؛ ٢٠١٦»، و" تلال الرماد؛ ٢٠٢١» و«أخت روحي؛ ٢٠١٩».

ودواوين الشعر: «لا أرى جسدي؛ ٢٠٢٠»، و"غبار الطريق؛ ٢٠٢٣"، و"حفرة تصطاد العابرين؛ ٢٠٢٥»

وأعمال سردية: « «مكان وسط الزحام؛ ٢٠١٨» و «عجائز البلدة؛ ٢٠٢٠» و « مقام الشوق؛ ٢٠٢٢"، و"ألف نافذة لغرفة واحدة.. رحلة من الطبيعة إلى الطبائع؛ ٢٠٢٢"، و" الأرانب الحجرية.. حكايات من عوالم خفية؛ ٢٠٢٥»

مسرح وأعمال أخرى: «غريب الحارة؛ ٢٠٢٣"، و" قاموس الروح.. حوار بين الشيخ والمريد؛ ٢٠٢٤»

ولم يتوقف الإنتاج الأدبى على الإبداع، بل كان النقد الأدبى والثقافى حاضرًا وبقوة وبتمكن: «النص والسلطة والمجتمع.. القيم السياسية فى الرواية العربية؛ ٢٠٠٣» و» بهجة الحكايا.. على خطى نجيب محفوظ؛ ٢٠١٣"، و"أقلام وتجارب؛ ٢٠١٩"، و"بصيرة حاضرة.. طه حسين من ست زوايا ٢٠٢٣"، و" خطوط فرعية؛ ٢٠٢٥»

(٣)

لكن عمار رغم إقراره بأهمية الأدب؛ فإنه يتصدى عبر تخصصه النوعى (الاجتماع السياسي) للتفسير والتنبؤ بغية التحكم عبر مسارات متعددة منها تغريداته وحالاته على وسائل التواصل الاجتماعى ومقالاته فى الصحف والمواقع ودراساته المعمقة وكتبه؛ وقد عالج كل بحسب جمهوره ووسيلته وأهدافه القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية: «التنشئة السياسية للطرق الصوفية فى مصر: ثقافة الديمقراطية ومسار التحديث لدى تيار دينى تقليدي؛ ١٩٩٧"، و"وزارة العدل المصرية: سيرة مؤسسية؛ ٢٠٠٣"، و"عشت ما جرى، شهادة على الثورة؛٢٠١٢"، و"التحديث ومسار البنى الاجتماعية التقليدية: حالة اليمن؛ ٢٠٠٥"، و"الفريضة الواجبة: الإصلاح السياسى فى محراب الأزهر والإخوان المسلمين؛ ٢٠٠٣"، و"العلاقات الخليجية – المصرية: جذور الماضى ومعطيات الحاضر وآفاق المستقبل؛ ٢٠٠٦"، و" أمة فى أزمة: من أمراض العرب السياسية فى الفكر والحركة؛ ٢٠١٠» و»الأيديولوجيا: المعنى والمبنى؛ ٢٠١٢» «حناجر وخناجر: دراسات حول الدين والسياسة والتعليم فى مصر؛ ٢٠٠٩"، و"العودة إلى المجهول: راهن الإصلاح فى مصر ومستقبله؛ ٢٠١٠"، و"التغيير الآمن: المقاومة السلمية من التذمر إلى الثورة، ٢٠١٢"، و"الطريق إلى الثورة: التباشير والنبوءة، الانطلاق والتعثر؛ ٢٠١٢» و «فرسان العشق الإلهي» و «أصناف أهل الفكر؛ ٢٠١٣"، و" القرية والقارة: دراسات فى النظم السياسية والعلاقات الدولية؛ ٢٠١٤"، و"انتحار الإخوان: انطفاء الفكرة وسقوط الأخلاق وتصدع التنظيم؛ ٢٠١٣"، و"تقريب البعيد؛ ٢٠١٧» و» المجتمع العميق: الشبكات الاجتماعية والاقتصادية للأصولية فى مصر؛ عام ٢٠١٧"، و"الخيال السياسي؛٢٠١٧"، و "جامعات وجوامع.. جدل التعليم الدينى والمدني؛ ٢٠٢٠"، و"عالم فى العراء .. الإعلام الجديد والثقافة والمجتمع؛ ٢٠٢٢"، و"المجاز السياسي؛ ٢٠٢١"، و" أبواب الأذى.. دفتر أوجاع أهل مصر؛ ٢٠٢٥».

(٤)

«كثيرون حصرونى فى صوت السياسة الزاعق» هذه العبارة المؤلمة التى قالها عمار فى أكثر من مناسبة، والمتأمل يجد أن هذا الأمر هو ما يظهر من بعيد لكن الواقع يختلف؛ فحين يصدر عالم المعرفة والشروق ونهضة مصر وهى من كبريات دور النشر فى العالم العربى كتبه، وحين تعتنى مراكز الدراسات الكبرى كمركز الأهرام الاستراتيجى بدراساته الرصينة فإن هذا يعنى أن نحذف كلمة (الزاعق) من جملة عمار، وحين نجد أعماله الأدبية مطبوعة عدة طبعات فإن سنحذف (حصروني) وحين نجد مئات المقالات وعشرات الأطروحات الجامعية التى تناقش أدب عمار على حسن فإننا سنجعل الجملة هكذا: «يصل أدبى وفكرى لكل الناس فى كل مكان».

ويمكن أن نطوف ببعض عناوين الأطروحات التى أعدت عنه: «المكان وأبعاد الدلالية فى أعمال عمار على حسن الروائية.. دراسة من منظور الجغرافيا الثقافية» للباحثة سارة قويسى جامعة الإسكندرية، و «الواقعية السحرية فى روايات عمار على حسن» للباحث عيد خليفة بجامعة الأزهر، و»الخطاب الصوفى فى الرواية العربية. «شجرة العابد» لعمار على حسن نموذجًا» للباحثة كريمة بوكرش . جامعة محمد بوضياف بالجزائر، و»الواقعية السحرية فى شجرة العابد لعمار على حسن» للباحث كاوة خضرى بجامعة طهران، و»تحليل معجمى أسلوبى للواقعية السحرية فى روايات مختارة لعمار على حسن» للباحث محمد مصطفى عبادي، وهى أطروحة باللغة الإنجليزية.. جامعة السويس، ومن بينها التى سجلت فى جامعة قنا بعنوان «المهمشون فى روايات عمار على حسن وماريو فارجاس يوسا.. دراسة مقارنة» وتقارن بين تناول نماذج روائية لقضية التهميش الاجتماعى روايات الأديب البيروفى الحاصل على جائزة نوبل، وروايات، وهناك أطروحة باللغة التركية بعنوان «الروايات ما بعد الحداثية فى الأدبين التركى والمصري»، تضع روايتى «جبل الطير» مع رواية نجيب محفوظ «ليالى ألف ليلة» ورواية خيرى شلبى «رحلات الطرشجى الحلوجي» فى مقارنة مع روايات «اسمى أحمر» لأورهان باموق، و»قواعد العشق الأربعون» لأليف شافاق، و»أطلس القارات الضبابية» لإحسان أوكتاى آنار، وهناك دراسة أعدها مجموعة من طلاب قسم اللغة الألمانية بجامعة عين شمس المصرية، عن تجليات القمع بين روايتى «زهر الخريف» ورواية «أرض لا صاحب لها « للأديب الألمانى ماتياس فريدريش مويكي، وهناك الكثير من الدراسات التى أعدها مدرسون وأساتذة جامعيون حول رواياته للترقى أو غيره، وقد صدرت عدة كتب عن أعماله منها؛ «أجنحة الخيال.. الواقعية السحرية فى روايات عمار على حسن» للباحث عيد خليفة؛ ٢٠٢١» و «صناعة الدهشة.. تأملات فى سرد عمار على حسن» للناقد فرج مجاهد عبد الوهاب؛ ٢٠٢٥، وهناك كتابان أحدهما للمرحوم للدكتور محمد السيد إسماعيل «خمسة أجنحة لطائر.. قراءة فى أعمال عمار على حسن». و»زيارة للنار المقدسة للكاتب سعيد نصر».

(٥)

هل منعت كفاءة عمار على حسن الفردية من اشتراكه فى فرق عمل؟ وهل عطلته الكتابة من الاحتكاك بالوسطين؛ العلمى والثقافي؟ بمتابعة مسيرته نجد أنه شارك فى الإشراف على عدد من أطروحات جامعية، للماجستير والدكتوارة، بمعهد الدراسات الأسيوية بجامعة الزقازيق، ومعهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، كما شارك فى مناقشة أطروحات أخرى فى جامعات القاهرة والزقازيق وطنطا، وأشرف مشتركًا على رسالة دكتوراه بجامعة مونتريال الكندية، كما عمل باحثًا فى الكثير من مراكز الأبحاث منها «مركز دراسات التنمية السياسية والدولية/ القاهرة» و»مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية/ أبو ظبي) وشارك فى مشروعات بحثية لمراكز بحثية كثيرة منها «مركز البحوث والدراسات السياسية/ كلية الاقتصاد . جامعة القاهرة» و»مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية» بمؤسسة الأهرام المصرية، و»مركز الدراسات الحضارية» . جامعة القاهرة» ومركز «السيداج» الفرنسي، فرع القاهرة، إضافة إلى أنه أسس مطلع عام ٢٠٠٥ مركز أبحاث ودراسات الشرق الأوسط، بوكالة أنباء الشرق الأوسط، وأطلق خلال فترة رئاسته له، الكثير من المشروعات البحثية منها «سبل تعزيز الوحدة الوطنية فى مصر» و»كيفية دمج أهالى سيناء فى الجسد الوطنى المصري» و «التعليم التكاملى والاستفادة من التجربة اليابانية» و»القيم الديمقراطية لدى المؤسسات الدينية غير المسيسة فى مصر»، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أنه ألقى الكثير من المحاضرات فى ربوع مصر معظمها، وفى عدد كبير من الدول منها فى جامعة أكسفورد البريطانية عن التصوف الإسلامى وحوار الحضارات ٢٠١٠، وفى جامعة إيرفورت الألمانية عن الدين والسياسة فى مصر ٢٠١٢، فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة للطلاب الدارسين باللغة العربية عن «مستقبل الإرهاب» و»المجتمع المصرى فى الأدب» ٢٠٠٩ و ٢٠١٥، والتاريخ والأدب عام ٢٠٢١، وفى جامعة سقاريا التركية عن التنافس المدنى الدينى فى مصر ٢٠١٢، وعن الحوار المصرى الأندونيسى فى جاكارتا ٢٠١٢، و عن «الإصلاح الديني» و»مؤشر لقياس جودة الدعوة الإسلامية» فى الكويت ضمن أعمال الهيئة الخيرية الإسلامية ٢٠١٦، وفى مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية فى أبو ظبى عن «الإسلام السياسي».

ويدفعنا هذا إلى التساؤل: إن كان هذا هو أقل مجال أسهم فيه عمار؟ فلماذا لم يحصل جائزة الدولة التقديرية حتى كتابة هذه الأسطر؟

(٦)

أكبر حزب فى مصر ليس الأهلى ولا الزمالك، بل «أعداء النجاح» الذين يرون فى كل موهبة خطرًا، وفى كل مخلص داءً، وفى كل صادق عدوًا، وانظر حولك تجد تكريمات يومية لأساطين الغبار والخواء؛ ولو وجهت الجوائز والمكافآت لمن يستحق، أو لما يستحق لكانت الأمور على غير ما نرى.. مع هذه الظلمة وذلك التيه استطاع عمار أن يحقق جوائز مهمة ومستحقة؛ ليقول للناس: أنتم تستطيعون.

نلحظ أولاً امتداد الجوائز منذ بدايات عمار حتى كتابة هذه السطور، ونلحظ أنها تنوعت تنوع كتاباته وجهوده ومنها؛ جائزة جامعة القاهرة فى القصة القصيرة ١٩٨٨، ونوط الواجب العسكرى من الطبقة الثانية عن حصوله على المركز الثانى فى نهاية تخرج الدفعة ٨٩ من كلية الضباط الاحتياط وجائزة «الفقه والدعوة الإسلامية» التى تشرف عليها هيئة قضايا الدولة فى مصر، ويشارك فى تحكيمها مفتى مصر، ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وبعض مشايخ الأزهر ومستشارون من الهيئة، وبعض الشخصيات الفكرية والفقهية المرموقة، وذلك عن عامى ١٩٩١ و١٩٩٢، وجائزة فى مسابقة «القصة القصيرة» التى نظمتها جريدة أخبار الأدب المصرية عام ١٩٩٤، وسلمها له الأستاذ نجيب محفوظ، وجائزة «القصة والحرب» التى نظمتها أخبار الأدب بالتعاون مع الشؤون المعنوية بالقوات المسلحة المصرية ١٩٩٥، وجائزة غانم غباش للقصة القصيرة ٢٠٠٣، وجائزة الدولة للتفوق ٢٠١٢، وجائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية ٢٠١٤، و جائزة الشيخ زايد للكتاب ٢٠١٠، وجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابى فى القصة القصيرة ٢٠١١، وجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابى فى الرواية ٢٠١٦، والجائزة التشجيعية لجائزة دبى للصحافة ٢٠١٧، وجائزة ابن بطوطة فى أدب الرحلات ٢٠٢١، وجائزة ساويرس الثقافية فى النقد الأدبى ٢٠٢٥.

ولو أن الجوائز لا يحدث فيها ما يحدث، لكان لهذه القائمة المعتبرة أن تتضاعف مرات كثيرة، ولو أضفنا هذه الجوائز إلى قيمة عمار عند قرائه وجمهوره وقرائه ومن يُعتدُّ بهم من المسؤولين، لرأينا قدوة حقيقة لكل كاتب وباحث ومفكر.

(٧)

«ينحنى ليأخذ الألوان التى استخلصها بيديه، من النباتات التى زرعها بيديه، ويمضى فى طريقه حتى يصل إلى مقر عمله، يظل بفرشاته وألوانه يومًا، عامًا، عقدًا، عقودًا، لا كلل، لا ملل، لا بحث عن جائزة.. ويأتى بعد رحيل جسده النحيل بآلاف السنوات، ملايين البشر يتأملون ما ترك من أثر ومعابد وأبهاء وتماثيل.. ويتساءلون: كيف؟ فنشير إلى البنّاة العظام: هؤلاء. لكنهم يبتسمون فى تواضع ويطلبون منا الانضمام إليهم وهم يقولون: «نحن» فيطيع من يطيع، فيكون رفاعة الطهطاوى وعبد الله النديم ونجيب محفوظ وطه حسين وعمار على حسن...

بقلم: أحمد سراج
ريشة: محمد صادق